أنثى حمقاء

لقد أصبح عمري اليوم خمسين سنة، وفتحت عقدا جديدا من عقود حياتي، ولم يتبق لي سوى عقد واحد كي أكتنف أحضان الشيخوخة. مجرد التفكير في انقضاء سن الشباب من رحلة عمري أتحول لرجل شرس متمرد، وأتخبط جدران بيتي بعنفوانية شرسة، وكأنني أريد إخبار الجماد أنني ما زلت شابا، ليس من الهين أن يرضى طموحي عقدا واحدا من الزمن، وليس من الهين أن أحقق كل ما تبقى من أحلامي الشبابية في عقد زمني واحد، لذلك لا بد من التفكير في موضوع ما يحافظ على شبابي وينقلني على محطة أحلامي بسعة. لذلك قررت أن أتزوج وبشروطي الخاصة.

توجهت نحو مبنى صحيفة " القلم" لأضع إعلاني هناك، استقبلتني الموظفة، وتبسمت في محياي قائلة:

- كيف لي أن أساعدك؟

فكرت أنها ستساعدني على أتم وجه لو أنها رضيت بي زوجا، لكنها ليست بتلك المواصفات التي جئت لأضعها في الإعلان، لذلك عدلت عن رأيي وبدأت بكتابة الإعلان.

" مطلوب فتاة عزباء تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما، ذات قوام رشيق، ووجه حسن، يفضل أن تكون شقراء ذات عينين زرقاوين للزواج من أرمل يبلغ من العمر خمسين عاما ولديه سبعة أولاد"

ضجرت الموظفة مجرد ما سلمتها صيغة الإعلان واتهمتني بالجنون، فكيف لي أن أفكر بالزواج من فتاة بهذه المواصفات، قلت لها دفاعا عن إعلاني:

- ألست رجلا مثل باقي الرجال ولدي شروطي الخاصة في الزواج.

- بلى، ولكن التكافؤ مطلوب أيضا لإتمام الزواج، هل تظن أن الحرب قد وقعت لتجد الفتيات يرمين أنفسهن على الزواج بهذه الطريقة البشعة.

شعرت من خلال كلماتها أنني مجرم أبحث عن ضحية جديدة من خلال إعلاني هذا، لكنني صممت على إبقائه كما هو، فأردفته بعنوان بيتي ورقم هاتفي وبريدي الإلكتروني، وتوجهت إلى بيتي وأنا أعلم علم اليقين أنه لن تتصل بي أي فتاة.

سألني أولادي عن سبب صياغتي للإعلان بتلك الطريقة ما دمت واثقا أنه لن تتصل بي أي فتاة، فأجبتهم بإجابة مبهمة بعدما تركوا الحيرة تدغدغ أنامل قلبي، أغلقت على نفسي باب غرفتي وبدأت أبحث مع نفسي عن إجابة شافية لسؤال أبنائي، فلقد نجحوا بإدخال الحيرة لقلب أبيهم، كيف لي أن أقبل على الزواج بهذه الطريقة العجيبة، هاتفت صديقي غسان وشكوت له ما يؤرقني، فضحك ضحكة أخجلتني وقال لي بحدب:

- لو كان أولادك قد صاغوا الإعلان بتلك الطريقة المنفرة لقلت في نفسي أنهم لا يريدون تزويجك، لكن أن تكتبه أنت بيدك فهذا شيء عجيب.

أغلقت الهاتف بعدما اقترح علي مازحا أن يزوجني أمه التي تبلغ من العمر ثمانين عاما، فضحكت مع نفسي لبرهة وعدت أفكر في الإعلان من جديد. هل يا ترى أريد أن أقنع نفسي اللوامة أنني أقدمت على الزواج و لم أوفق في ذلك وبالتالي أسلم من إلحاحها الدؤوب، هل بت أخشى الخوض في تجربة جديدة لدرجة أنني أعجزت كلمات إعلاني، أم أنني أريد أن أحمي أبنائي من فكرة زوجة الأب الشريرة التي تظهر في الحكايات المأساوية. وسط ضجيج تفكيري الصاخب رن هاتفي وأيقظني من سبات التفكير، ظننت في البداية أن غسان قد اتصل بي ليمازحني من جديد، لكن الرقم غريب، ففتحت الخط وبدأت الحوار.

- السلام عليكم

- وعليكم السلام ... سيد أحمد

توقفت للحظة عن التفكير، لقد كان صوتا نسائيا رقيقا، فخشيته بشدة، بل خشيت أن يكون متعلقا في الموضوع ذاته.

- نعم، أنا أحمد

- أنا عبير، اتصلت بك من أجل إعلان الزواج رقم تسعة في صحيفة القلم.

لم أستطع أن أتمالك نفسي من شدة العجب الذي اقتحم قلبي بوحشية مزرية، حسبت بداية أن الموضوع متعلق بغسان ومزاحه، لكنها قد حددت موعدا للمقابلة

- ما رأيك أن نتقابل أمام صحيفة القلم يوم الخميس القادم في تمام الساعة الرابعة عصرا وبعد ذلك نخرج سويا لأحد المطاعم القريبة للتفاهم.

- حسنا، موافق.

وافقت والذهول يكاد يصاهرني، فمزاح غسان ما زال يجتاح قلبي، فربما أنه قد استعار صوت فتاة ليمازحني من جديد، فقررت في أول الأمر عدم الذهاب، فلست على استعداد أن أكون أحد ضحايا مقالب السيد غسان، لكني خشيت عواقب الفضول، فهناك احتمال أن تكون الفتاة جدية وليس لها علاقة بصديقي غسان، لذلك قررت الذهاب.

ما أن وصلت حتى فتحت فمي مندهشا كالأبله، لقد كانت تلك الفتاة ذاتها التي رسمت ملامحها في إعلاني، وكأنها قد تشكلت من عجينة كلمات الإعلان لتتصور بصورتها الملائكية هذه، لقد كانت فتاة حسناء، شقراء ذات عينين زرقاوين، فضلا عن قوامها الرشيق، ويبدو أن عمرها مطابقا لما جاء في الإعلان. شعرت أنني في حلم يقظة بات يطرق باب مراهقتي المنسية من

جديد. عاثت في داخلي مشاعر البلوغ من جديد، فربما أن مبتغاي قد تحقق وعدت لمطلع شبابي من جديد.

لقد عشت معها فترة من الزمن لو قدرت بمال الدنيا لرفضت بيعها، لقد كانت فترة تعارف فيما بيننا، فقد خرجنا سويا، وتحدثنا كثيرا عن أمور متعلقة بشخصياتنا، لقد تغلغلت بأعماق شخصيتي لدرجة أنني أصبحت كتابها المفضل التي تطلع عليه وقت الحاجة بكل يسر وسهولة، شعرت معها أنني قد ولدت من جديد، فكم تمنيت لو أنها من أنجبت أولادي السبعة، إذن لأمضيت حياتي منذ مطلعها بسعادة وهناء!

أقسمت لها أنني سأبقى مخلصا لها طوال العمر، فلو طلبت ما طلبت لحققت مالم أحقق، فهي من جعلت في داخلي بوادر القوة لخلق الجديد، وهي من فتحت لي أبواب الأمل من جديد، وهي من أنشأت علاقة المودة بيني وبين الحياة، فهي فتاة فطينة، طيبة القلب، محبة للناس، منشرحة النفس، باختصار هي حالة نادرة قد أنعم الله بها على زماننا، لقد أحببتها بصدق وتمنيت من الله أن يمد في عمري كي أسعدها قدر الإمكان.

على حين غفلة سألني صديقي غسان بتعجب:

- ما دامت عبير تحظى بكل هذه المواصفات، والتي يحلم بها كل شاب فتي، فلم أرادت أن تتزوج من أرمل خمسيني، ولديه أولاد سبعة.

لا أنكر أنني تذمرت من تعجب صديقي، فربما أننا لا نرغب في مواجهة الحقائق التي قد تقودنا لألم التفكير، ولا أنكر في الوقت نفسه أنه قد وضعني في لحظة يقظة غريبة، جعلتني أتحرر من مخاوفي، وأكشف غطاء الجبن عن لساني، لأوجه سؤال صديقي لعبير بكل جرأة وثبات، فأجبتني هي الأخرى بكل جرأة وثبات:

- لأنني ببساطة أبحث عن النضج، فلطالما حلمت بالزواج من رجل ناضج.

بدأت علامات الاقتناع ترتسم على لوحة وجهي البيضاء، فزاد من اقتناعي تتمة جوابها.

- ألم تعرفني بعد يا أحمد؟! هل تحسبني غبية لهذا الحد كي أربط مستقبلي مع شاب متهور من شباب هذه الأيام، والذي ربما ما يزالون يعيشون مرحلة المراهقة الساذجة.

بلعت ريقي، واستنشقت أنفاسي العاشقة، ولكت شفتي العلوية بهدوء، ثم همست لها بكل رفق، طالبا منها أن تقبل بي زوجا، فقد حان موعد اجتماع ذرات الحب المتجانبة، تبسمت برقي قاتل تسبب في قتل لون وجهي الطبيعي ليحمر بشدة، وقالت بحياء متصنع:

- هذا منتهى عشقي، لكن عليك أن تمهلني لأيام كي أرتب أموري.

عدت لبيتي والفرحة تغمرني، وطلبت من أولادي أن نجتمع سويا في المساء للتباحث بأمر زواجي، وحينما حل المساء بينت لهم أنهم من أهم أولوياتي وأن عبير لن تأخذ مكانهم في قلبي، بل سأحتضنهم جميعا بكل حنان، فقلبي الكبير مستعد لذلك.

توجهت مرة أخرى نحو مبنى صحيفة " القلم " وأنا محمل بالهدايا الرائعة، فلقد قررت أن أعرب للموظفين عن شكري وامتناني، ألم تنطلق شرارة عشقي من مبنى هذه الصحيفة؟! وربما أنها ستنطفئ أيضا في المبنى نفسه، فقد كانت تجلس عبير مع الموظفة التي استلمت مني الإعلان وتمكنت من سماع حديثهما المسموم، حيث قالت الموظفة وسط ضحكها الخبيث:

- آه يا عبير، لم أكن أتوقع أنك ستنجحين في خداع أحمد الغبي هكذا!

تمنيت حينئذ ألا أكون ضحية مؤامرة حقيرة قد كان قلبي نتيجتها، وتمنيت أن تنكر عبير كلام الموظفة، تمنيت أن تعترف بحبها لي، وأنها تريد أن تتزوجني بعد أيام، لكنها قالت:

- كل هذا حصل بفضلك يا عزيزتي، فلو لم تطلعيني على إعلان المريض النفسي أحمد لما تمكنت من كتابة رسالتي الماجستير من خلال تشخيص حالة واقعية.

شعرت أن الأرض بدأت تتزلزل تحت أقدامي، فلم أتوقع أنني بعدما بلغت سن الخمسين سأكتشف أنني مريض نفسي على يد أنثى حمقاء كان هدفها أن تتلاعب بمشاعر الآخرين لتحقق انجاز وهمي. فزاد استفسار الموظفة من شدة غيظي

- وماذا عن خطيبك مراد؟! ماذا لو اكتشف علاقتك مع أحمد.

ضحكت المنافقة عبير ضحكة ثقة وقالت بغباء:

- وكيف لخطيبي أن يعرف، ما هي سوى أيام وسأنهي رسالتي وأترك ذلك الشهواني أحمد!

ربما أنني تذمرت لدخولي العقد الخامس من حياتي، لكن لولا هذا العقد وتغيراته البيولوجية لما تمكنت من ضبط أعصابي في هذه اللحظة، وربما سأقضي بقية عمري خلف القضبان، لكنني تعوذت بالله من الشيطان، وابتسمت لذاتي المقهورة، وحاولت أن أعود لبيتي لولا أن سمعت عبير خرخشتي وتفاجأت من رؤيتي، ولا بد أنها عرفت أنني سمعت حديثها

الملعون، لذلك نادت علي برقتها المعتادة، لكني نظرت إليها باستحقار ونعتها بالحقارة ثم ذهبت.

مرت شهور بعد تلك الحادثة، وقد أمضيت خلالها أروع لحظاتي مع أبنائي، فقد نظمت برنامجا للترفيه، وقد روحت عن نفسي كثيرا، فربما أنني كنت بحاجة لهذا الترويح منذ فترة، وربما أنني كنت مريضا بالفعل وبحاجة لرحلات استجمام كي أشفى، وفي تلك اللحظات كنت حريصا قدر الإمكان ألا أتذكر عبير، لكنها قد جاءت لي اليوم لتطرق باب بيتي وقد حملت في عينيها قصص الحزن والندم، فأمسكت يدي بقوة قائلة:

- لقد أدركت الآن قيمة النضج الذي كنت أحدثك عنه، وقد عرفت بصراحة قيمة الإخلاص للآخرين، وعرفت أيضا معنى الحب الحقيقي.

شدت قبضتها على يدي، وركزت نظرها في عيني بكل شوق، فتأججت نار اللهفة في قلبها ليتجرأ لسانها بالحديث دون أي حياء قائلة:

- ما كنت لأعرف قيمة ما عرفت لولا معرفتي بك... اسمع يا أحمد أنا منذ هذه اللحظة خادمتك، فقد تركني خطيبي مراد حينما عرف قصتي معك ، وقد جئتك لأنني أحببتك وعرفت قيمتك.

حاولت أن أتفوه بكلمات متكدسة بلساني منذ شهور لكنها سبقتني بالحديث لتقول لي وكأنها تعلم ما أريد قوله:

- لا تظن أنني جئتك لأن خطيبي قد تركني، فبإمكاني من الآن أن أشير بأصبعي لعشرات الشباب ليتقدموا لخطبتي، لكني أريدك أنت فحسب.

سحبت يدي من بين يديها بقوة، وعدت خطوة للوراء، واستجمعت أنفاسي بقوة وكأنني أريد أن أحمي نفسي من سحر أنوثتها الحمقاء، فقلت لها:

- أما تزالين تعتقدين أنني مريض نفسي ، فماذا عنك أنت؟

تركتها تنتظر المزيد من الحديث، وحينما تأكدت أنها على أتم الاستعداد للاستماع قلت لها:

- أنصحك يا أختي أن تراجعي مشرف رسالتك كي يتأكد من خلوك من الأمراض النفسية!

قلت جملتي قبل أن أغلق باب بيتي في وجهها بكل أسى تاركا أحلامي وراء الباب...

النهاية